
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

إشكالية تناول تاريخ المغرب القديم
من خلال المصادر الأجنبية:
نموذج حرب يوغرطة للمؤرخ اللاتيني سالوستيوس.

ذ. سعيد البوزيدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة

لا يجادل اثنان في أن طبيعة الموضوع هي التي تفرض على الباحث تحديد المصادر التي من شأنها أن تُنير له الطريق. غير أنه في الكثير من الأحيان يجد نفسه مضطرا إلى الاعتماد على ما هو مُتداول ومعروف في انتظار الكشف عن مُكمل لما هو في المتناول. وكان من نتائج هذا الأمر أن ارتفعت منذ أواسط القرن الماضي أصوات تنادي بإعادة كتابة تاريخ المغرب اعتمادا على مناهج علمية حديثة. بيد أنه يبدو أن هذا الطرح يبقى بعيد المنال على ضوء قلة ما نتوفر عليه من مصادر تاريخية تهم تاريخ المغرب على عكس الفترات القريبة.

تدفعنا هذه الوضعية إلى التفكير في إشكالية التعامل مع المصادر التاريخية للفترة القديمة من جهة، وكذا مع ما تم إنتاجه من أبحاث تاريخية من جهة ثانية. ويقتضي هذا الأمر تحديد طبيعة الروابط التي كانت تجمع بين تاريخ الآخر وتاريخ المغرب القديم، ثم العمل على تحديد الزاوية والمنظور، الأمر الذي من شأنه أن يساعد على وضع ضوابط منهجية تعمل على توضيح النظرة التي سيتم بموجبها معالجة الموضوع.

1. بين التاريخ الروماني والتاريخ الموريطاني : تقاطع أم تكامل ؟

يدفعنا الاهتمام بهذه المنهجية إلى التساؤل عن الإطار العام الذي تتمحور فيه المواضيع التاريخية :هل هو تاريخ موريطانيا تحت السيطرة الرومانية أم تاريخ روما من خلال نقطة توقفها في موريطانيا ضمن مسيرة توسعاتها في العالم المتوسطي ؟ إن دواعي هذا التساؤل نابعة من طبيعة الأبحاث التي اهتمت بتاريخ المغرب في العهد

الروماني، فمنها من يعبر عن ذلك بالمغرب الروماني [1]، ومنها من يعبر عن ذالك بماضي شمال إفريقيا في القديم ويدرج في ذلك المغرب القديم [2].

يفرض الإطار الأول توفر مصادر تاريخية تتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية للمجتمع الموري قبل فترة الاحتلال الروماني. وهي جوانب لا نملك عنها إلا إشارات ذات إفادة محدودة، ونعاني معها أمرين : أولهما قلة المعلومات التي تتناول أوضاع الموريين ثم عموميتها وتناقضها في بعض الأحيان[3]. فالمصادر الأدبية الرومانية لم تكن على علم ثابت بأحوال البلاد بدليل هيمنة العموميات والفرضيات والمقارنات مع جهات أخرى[4]. أما الأمر الثاني فيتعلق بحمولة هذه المعلومات، فهي كتابة أجنبية يونانية أو لاتينية، وبالتالي فهي لا تعبر عن واقع وأحوال مُعاشة، مما يجعلها عرضة لإيديولوجية القوى المسيطرة. يضاف إلى هذا، أنها أخبار مستقاة من مصادر تختلف حسب اجتهادات المؤرخ، وغالبا ما يكون قد

1- L. CHATELAIN, Le Maroc des Romains, Paris, 1968, p. 10-313 et voir aussi, Ch.A. JULIEN, Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie, Alger, Maroc, Des origines à la conquête arabe, Paris, 1978.

2 - S.G , Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, 8 vol. Paris, 1913-1928.

أنظر أيضا حول إشكالية العلاقة بين التاريخ الروماني وتاريخ موريطانيا :

J. CAGNE, Les problèmes de la recherche historique au Maroc, bilan général, Hespéris-Tamuda, VII, 1966, p. 113-117.

3 - يقول محمد مجدوب حول هذا الجانب " إن المصادر التي نستقي منها أخبارا حول ماضي هذه البلاد (موريطانيا قبل السيطرة الرومانية) كلها أجنبية، لكتاب إغريق ورومان، ينتمون لفترة تمتد من حوالي القرن 6 ق. م. مع هيكاتي الميليتي وتصل إلى حوالي القرن 3 م. مع ديون كسيوس... والمعلوم أن الأخبار التي أدلى بها هؤلاء الكتاب وردت عرضا في موضوعات تتناول تاريخ شعوبهم ونظرتهم الىسكان شمال إفريقيا عموما يطبعها التحيز القومي. ولذلك فإن هذه النصوص لا تفي بالغرض الذي يتشوق إليه الباحث للإحاطة بتاريخ الموريين سكان المغرب الأقدمين" محمد مجدوب، مختصر حول تاريخ موريطانيا قبل السيطرة الرومانية، بحوث، 6، 1995، ص. 149.

4 - دفع هذا الغموض المهتمين بالفترة المورية إلى تقسيمها إلى مرحلتين : المرحلة الغابرة وهي مرحلة الأساطير والبطولات مثل أسطورة Antée وأسطورة أطلس Atlas, والمرحلة الثانية والمسماة تجاوزا بالمرحلة التاريخية وهي الأخرى تحتوي على ثلاث مراحل : مرحلة الإتصال الموري بالفينيقيين والقرطاجيين ، ثم مرحلة المملكة المورية وأخيرا مرحلة نشأة المراكز العمرانية. أنظر محمد مجدوب، م. س. مختصر حول تاريخ موريطنيا...ص. 152-156. أنظر أيضا عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، الرباط، 1984، ص، 37-48.

سمع عنها ولم يشاهدها[5]. إن اعتماد هذه المصادر المكتوبة قد يشكل مصدر الأحكام المسبقة مما يلزم الحذر، ووضعها في سياقها التاريخي العام الذي أنجزت فيه[6].

تضعنا هذه المُعيقات أمام الإشكالية التالية، وهي أن كل المحاولات المرتبطة بدراسة تاريخ الفترة المورية يغلب عليها طابع الفرضيات والاحتمالات الناتجة عن اجتهاد الباحث في تأويل النص وحمولته المعلوماتية. يضاف إلى هذا خطورة الاسقاطات والمقاربات مع ما كانت تعرفها باقي الشعوب والممالك في إفريقيا الشمالية دون مراعاة الخصوصيات الجغرافية والتاريخية للمغرب القديم[7]. وتبقى نتائج التحريات الأركيولوجية وقراءتها، لأن من شأنها أن تساعد على تغطية بعض النقط المرتبطة بهذه الفترة من تاريخ المغرب القديم. إلا أن نتائج الأبحاث الاركيولوجية بدورها تعاني من القلة بالنسبة لهذه الفترة من تاريخ موريطانيا الغربية، فأغلبية الجهود تنصب إما على الفترة الفينيقية والقرطاجية، وإما على الفترة الرومانية أو ما يسمى بالفترات المتأخرة. مما ينتج عنه تهميش فترة الممالك البربرية [8]

---

[5]- هذا ما نلمسه خاصة عند بلينيوس الشيخ في تناوله لأوضاع موريطانيا، إذ يعمل على توظيف الرحلات الجغرافية الفينيقية القرطاجية مثل رحلة حانون ورحلة بوليبيوس Pline, H. N. V. 1-12.ومن أجل تكوين فكرة عن طبيعة هده المصادر انظر إجماليا:

R. ROGET, Le Maroc chez les auteurs anciens, Paris, 1924.

[6]- M. SAHLI, Décoloniser l'histoire, introduction à l'histoire du Maghreb, Maspero, Parsi, 1965. Et voir aussi, le compte rendu de A. LAROUI dans Hespris, VI, 1965, p. 239-242 ; H. BRUNSCHVIG. Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français 1871-1914, Paris, 1960 ; J. MARX, L'usage des Villes d'Or. Une archéologie mentale au service du dessein colonial, Cahiers d'études Maghrébine, Alger, 1956, p. 150-158.

[7]- عملية الإسقاطات والمقاربات بين مختلف الخاصيات لشمال إفريقيا في الفترة القديمة بارزة في كتابات كزيل الذي لم يراع في تناوله لهذه الفترة من تاريخ إفريقيا الشمالية الخصوصيات الحضارية لموريطانيا. حول هذا الموضوع أنظر:

S. GSELL, description de l'Afrique du Nord, Paris, Larouse, 191.

وانظر كذلك التحليل الذي قدمه شهبون ادريس:

D.CHAHBOUN, La représentation des « Imazighen » antiques dans l'historiographie contemporaine, Thèse de 3 ème cycle, Besançon, 1986. (Trav. Dact).

[8]- وعن هذا يقول عمر أكراز:

« Les raison de cette situation (rareté des études archéologiques pour cette période) sont doubles : d'une part l'indigence des documents écrits et, d'autres part, le peu d'intérêt accordé par les archéologues à cette phase de l'histoire du Maroc », A. AKARRAZ, Le Maroc du Sud. De Diocletien aux Idrissides, thèse de doctorat, Université de Paris-Sorbonne, 1985, p. 3, (Trav. Dact)

أما تناول تاريخ المغرب القديم من زاوية التاريخ الروماني فإنه يثير جدالا ومناقشات تتمحور أساسا حول سعي بعض الدراسات إلى طمس تاريخ المغرب القديم قبل السيطرة الرومانية، وإبراز الدور الحضاري الذي لعبه الرومان في شمال إفريقيا[9]. مما يعتبر انحيازا إلى فكرة عظمة روما ودروها التاريخي في حوض البحر المتوسط[10]. بيد أن هذه الاعتبارات فيها جانب من الموضوعية وبالتالي يجب أن لا تغيب عن ذهننا ويمكن توظيفها، في شكلها الإيجابي الرامي إلى تمحص واقع وأحوال المغرب القديم تحت السيطرة الرومانية. هذا الطرح يمليه نقص مصادر "محلية" يتم توظيفها من وجهة نظر داخلية. فأحادية المصدر "الخارجي" لا تترك الخيار في تناول الموضوع من وجهة نظر خارجية. غير أن توظيف نتائج هذه النظرة من أجل استخراج ما تركز عليه هذه المصادر "الخارجية" من أخبار ومعلومات مرتبطة بالتاريخ والمجتمع الموري، أمر ممكن.

تنبع الاستعانة بهذه المصادر من كون الفصل بين تاريخ موريطانيا وتاريخ روما أمر شائك لاعتبارات منهجية وتاريخية، فتداخل وتكامل كل من التاريخين أمر يلزم الانفتاح على مختلف هذه المصادر. مما يفرض تبني النظرة الشمولية في تناول تاريخ المغرب القديم، نظرا للموقع الجغرافي الذي يجعل منه آخر نقطة للتوسعات الرومانية في العالم المعروف، ثم لامتداداته الطبيعية وعلاقاته مع شبه الجزيرة الإيبيرية نتيجة الارتباطات المباشرة بين الطرفين، وأخيرا نتيجة الترابط التاريخي والحضاري لباقي جهات السواحل الغربية الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط.

يبرز تداخل هذه العلاقات منذ الرحلات الجغرافية الفينيقية القرطاجية التي جعلت من المغرب القديم أهم نقط اهتماماتها. فكل الرحلات نحو السواحل الأطلسية تتحدث عن توقفها في بلاد ليبيا الغربية قبل مواكبة الرحلة. وهذا يقتضي تناول تاريخ

---

[9] - عملت هذه الدراسات على إبراز معالم الحضارة الرومانية في موريطانيا الغربية مثل ما قدمه:
L. CHATELAIN. Op. Cit, et J. COLIN, L'occupation romaine du Maroc, Conférence faite le 5 fevrier 1925 au cours des affaires indigènes à Rabat, Imprimerie officielle , Rabat, 1925, et voir aussi, A; BERNARD, Le Maroc, Paris, 1932, p. 60-72.

حول إبراز خاصيات هذه الحضارة في الكتابات الإستعمارية للفترة القديمة انظر إبراهيم بوطالب، البحث الكلونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الإستعمارية، حصيلة وتقويم، البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، كلية الآداب الرباط، ندوات ومناظرات رقم 14، 1889، ص. 129- 130.

[10] - كان هذا المنظور هاجس الكتابات الكولونيالية، التي جعلت من الحضارة الرومانية ووجودها في المغرب مرجعية يتم الإعتماد عليها في تبرير وتمرير الخطاب الإستعماري الحضاري الرابط بين الوجود الروماني والفرنسي في المغرب. أنظر على سبيل المثال العمل التالي :
G. CHOVIN, Aperçu sur les relations de la France avec le Maroc des origines à la fin du Moyen-Age, Herpéris, XLIV, 1957, p. 248 - 298.

المغرب القديم، في إطار التاريخ الشامل للعالم المتوسطي، لأن هذا القسم من القارة الليبية كان يشكل محطة استراتيجية في دراسة عملية التفاعلات بين مختلف الجهات التي دخلت في حظيرة السيطرة الرومانية. فلا يمكن عزل الأحداث التاريخية ولا التفاعلات الاقتصادية ولا التطورات الاجتماعية التي شهدها المغرب القديم عن التحولات العامة التي كانت تعيش عليها روما وباقي العالم المتوسطي.

وتتم داخل هذا الإطار مراعاة الاعتبارات التاريخية للمغرب القديم وهي الاعتبارات التي عانت روما من آثارها طوال فترة وجودها في المنطقة. إضافة إلى الخصوصيات الجغرافية والمتمثلة في وضع هذا القسم من القارة الليبية في الصورة العامة للعالم المعروف. أخيرا يجب تناول تاريخ المغرب القديم في إطار التفاعلات المتكاملة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط الناتجة عن عمليات المد والجزر الحضاري بين الضفتين[11]. فإذا كانت الجهة الشمالية، بالنسبة للفترة التي تهمنا، هي مركز القرارات ومصدر التحولات، فإن الجهة الجنوبية من العالم المتوسطي أثرت هي الأخرى في مجرى الأحداث التاريخية وتركت بصماتها في التاريخ الروماني والعالم المتوسطي. وما صدى ثورة إيدمون وما نتج عنها من تحركات على صعيد السلطة المركزية في روما من أجل إخمادها والحد من انتشارها إلا دليل على هذا التأثير. كما أن هجوم القبائل المورية على الضفة الشمالية للبحر المتوسط انطلاقا من سنة 171 م[12] دليل آخر على أن هذه المنطقة ظلت فاعلة ومؤثرة، وساهمت في كتابة التاريخ الروماني، مما يجعلنا نعتقد أن عملية التكامل والتفاعل بين "التاريخين" أمر لا محيد عنه نظرا لتقاطع الحلقتين الرومانية والموريطانية في كتابة وقراءة تاريخ المغرب القديم.

---

[11] - أنظر في هذا الإطار:

L. HARMAND, L'Occident Romain : Gaule, Espagne, Bretagne, Afrique du Nord, (31 avant, J. C. - 235 apès J. C) Paris, 1960. Et voir aussi, A. BALIL, Tres aspectos de las relaciones hispano-africanos de las en época romana, I, Congresso arqueologico del Marrueco - espanôl, Madrid, 1953, p. 387-404.

[12] - يرى بنعبو وراشيت أن الهجومات المورية الأولى على منطقة البيتيك، إبان السيطرة الرومانية، بدأت سنة 171 م. وقد تناول محمد رحمون هذا الموضوع بالتفصيل، أنظر:

M. RAHMOUNE, Relations politiques et militaires entre la Péninsule Ibérique et le nord de l'Afrique dans l'Antiquité (VIII ème S. AV. J. C. S.- II ème S. AP. J. C), d'après les sources littéraires, Thèse de doctorat, Paris, XII, 1995, p. 311-344. Et voir aussi, M. BENABOU, La résistance africaine à la romanisation, Paris, 1976, p. 148 notamment la note 145 ainsi que la page 150 et la note 15, et, J. DESANGES, Mauretania ulterior tingitana, B.A.M., , IV, 1960, p. 437-441

2 - تفاوت مستويات تناول المواضيع حسب الزاوية والمنظور.

حينما نضع أمامنا خريطة العالم المتوسطي إبان السيطرة الرومانية، ونحدد المغرب القديم كمجال للدراسة، تطرح علينا إشكالية منهجية قلما تم الاهتمام بها رغم أهميتها وهي الزاوية التي ستتم منها دراسة هذا الإقليم في إطار علاقته أو تبعيته لمركز القرار والسلطة: روما. فتحديد زاوية الرؤيا والمنظور يساعد على ضبط مستويات تناول الموضوع: أفقيا، عموديا، جزئيا أو شموليا ويستدعي تبني منهج علمي يساعد على ضبط مستويات تناول الموضوع واستغلال المادة التاريخية وفق الأحداث التاريخية التي عرفتها موريطانيا تحت السيطرة الرومانية[13].

فالزاوية *العمودية الخارجية* يتم فيها تناول تاريخ إفريقيا الشمالية عامة في إطار التوسعات التي شهدتها روما في العالم المتوسطي[14]. ومن خلالها يتم التطرق لتاريخ المغرب القديم في إطار التسلسل الكرونولوجي للتوسعات العسكرية، أو في إطار ردود فعل الأهالي المتمثلة في انتفاضات القبائل المورية ضد السياسة الرومانية[15]. ثم أخيرا في إطار تباين سياسة الأباطرة الرومانيين مع مختلف أقاليم

---

[13] - هذا الطرح المنهجي هو نتاج الدراسات البلبوغرافية التي قام بها مجموعة من الباحثين حول الإستغرافية التاريخية للمغرب القديم. ومن أهم هذه الدراسات تلك التي تقدمها التقارير البيليوغرافية للأبحاث الأركيولوجية مثل ما نجد عند:

M. EUZENNAT, Archéologie de l'Afrique du Nord. Bibiolgraphie des ouvrages parus en 1967 et complément des années antérieures, Aix en Provence, 1970, p. 103-165. Id, L'archéologie marocaine de 1955 à 1957, B.A.M, II, 1957, p. 199-229. Id, L'archéologie marocaine de 1958 à 1960, B.A.M, IV, 196O, p. 523-564.

ثم حول الإستغرافية التاريخية مثل الأعمال التي قدمها «دوزنج»:

J. DESANGES et S. LANCEL, Bibiolgraphie analytique de l'Afrique Antique, Paris, XIII, 1976 ; XIII, 1977. Et dernièrement le travail de H. ARRAICHI, Le Maroc antique dans l'Historiographie contemporaine, 1912-1985, tèese de 3 eme cycle, T. I et II, Besançon 1992-1993 (Trav . Dac).

[14] - خير من يمثل هذا الإتجاه:

E. ALBERTINI, et autres, L'Afrique du Nord Française dans l'Histoire, Lyon-Paris, 1937 et voir aussi E. ALBERTINI, L'Empire Romain, PUF, 1970, et P. GRIMAL, La civilisation romaine, Artaud, Paris, 1984

[15] - أنظر حول هذا الإتجاه مثلا:

J. MESNAGE, Romanisation de l'Afrique (Tunisie, Algérie, Maroc) , Paris, G. BEAUCHESNE, 1913 ; J. CARCOPINO, Le Maroc antique, Paris, 14 ème éd. 1948 ; E. F. GAUTIER, Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècle obscurs, Paris, 1937. et voir aussi, G. Ch. PICARD, La civilisation de l'Afrique romaine, Libraire Plon, 6ème éd., Paris, 1959.

الإمبراطورية. غير أن ما يعترض هذه الزاوية هو نظرتها الضيقة للأحداث، بحيث لا تهتم بتاريخ المغرب القديم إلا في إطار الأحداث العسكرية التي كان مسرحا لها. أضف إلى هذا أن هذه الأحداث غالبا ما يتم تناولها في إطار إبراز عظمة روما وشرعية دخولها إلى هذا الإقليم. وبذلك فهي لا تأخذ بعين الاعتبار الخصائص الجغرافية والتاريخية والاجتماعية للمغرب القديم.

أما تناول الموضوع من الزاوية *العمودية الداخلية* فينطلق من تقصي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للممالك المورية وعلاقتها بالقوى المسيطرة على العالم المتوسطي من فينيقيين وقرطاجيين ثم رومانيين[16]. وتهدف الانطلاقة من هذه الزاوية إلى تقصي أحوال المغرب القديم في عهد الممالك المورية، ثم الاهتمام بعد ذلك بالتحولات التي شهدتها البلاد تحت السيطرة الرومانية. ومن إيجابيات هذا المنظور العمودي الداخلي الحرص على إبراز التحولات التي عرفها المغرب القديم تحت السيطرة الرومانية وإن كان غالبا ما يتم إغفال وضع الأحداث والتحولات في إطار التقلبات التي عرفتها روما وكذا الأهداف المسطرة ضمن مشروع توسعاتها. يضاف إلى هذا أن هذه الزاوية تغفل الاهتمام بالتقلبات التي كان يعرفها مركز السلطة والقرارات في روما والدوافع الملحة التي كانت وراء دفع التكتلات السياسية والقوى العسكرية إلى تبني سياسة التوسع والهيمنة، والسهر على تطبيقها[17].

فكل من الزاوية العمودية الداخلية والخارجية يقدم منظورا مختلفا غير أنهما متكاملان. و أفرزت نتائج أعمال هاتين الزاويتين *منظورا أفقيا* يحرص على تناول تاريخ المغرب القديم في إطار الضفة الجنوبية من حوض البحر الأبيض المتوسط[18]. هذا المنظور يسعى إلى جعل هذه الجهة من العالم المتوسطي كمركز للحضارات، انطلاقا من الحضارة المصرية ثم الفينيقية والقرطاجية والممالك المورية، ويجعل من سيطرة الرومان حدثا خارجيا عاشته منطقة شمال إفريقيا. وهو الآخر يعمل في اتجاهين :

---

[16] - خير من يمثل هذا الإتجاه:

S. GSELL, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, VIII volumes, Réimpression de l'édition 1921-1928, Otto Zeller Verlag. OSNABRUCH, 1972. Et voir aussi, J. DESPOIS, l'Afrique blanche I, L'afrique du Nord, , PUF, 1958.

[17] - حول أهمية هذه العناصر في دراسة التاريخ الروماني في شموليته أنظر :

R. BIANCHI-BANDINELLI, Rome, le centre du pouvoir, (coll. L'univers des formes), Paris, 1969.

[18] - يمكن القول إن هذا الإتجاه جاء كرد فعل ضد المنظور العمودي السالف الذكر، وخير من يمثل هذا المنظور الأفقي نجد محمد فنطر و فرانسوا دوكري :

F. DECRET et M. FANTAR, L'Afrique du Nord dans l'Antiquité, . Histoire et Civilisation (des origines au Vème siècle) Paris, 1981

ينطلق *الاتجاه الأول*، بالنسبة للفترة التي تهمنا، من انتقال اهتمام روما إلى شمال إفريقيا وسيطرتها على أراضي قرطاج منذ 146 ق. م.[19]، حيث يتم تتبع عمليات التدخل الروماني مع الاهتمام بمراحل الغزو والاستيطان و"الرومنة" انطلاقا من إفريقيا ونوميديا ثم موريطانيا. ويتم إدراج تاريخ المغرب القديم في سياق الغزو الروماني لشمال إفريقيا الذي كان بمثابة أحداث خارجية عرفتها هذه الجهة من البحر المتوسط. غير أن المنظور من هذه الزاوية قد يغلب عليه طابع "القطيعة" بين الجهة الشمالية والجنوبية من العالم المتوسطي، مما قد ينتج عنه إغفال السياق العام للأحداث وأثر التفاعلات بين ضفتي البحر المتوسط.

أما *الاتجاه المعاكس* فينطلق منذ 42 ميلادية ويعمل على تقصي الأحداث التي عرفتها بلاد الموريين بعد مقتل الملك بطليموس[20]. فيتم ربط الأحداث التي عرفها هذا الجزء من موريطانيا مع الأقاليم المجاورة سواء في إفريقيا الشمالية أو في شبه الجزيرة الإيبيرية. إيجابية هذا الاتجاه أنه يعمل على تأكيد علاقة موريطانيا الغربية بشبه الجزيرة الإيبيرية سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية[21]. وبالتالي يفرض الاهتمام أيضا بأحوال هذا الإقليم الذي يشكل في آن واحد، آخر نقطة للتوسعات الإمبراطورية الرومانية في الجهة الغربية من البحر المتوسط حيث بداية العالم المجهول وراء أعمدة هرقل. غير أنه ما قد يؤاخذ على هذه الزاوية هو عدم الانفتاح على الاعتبار السياسية العامة للعالم المتوسطي، وبقاءها، هي الأخرى، محصورة في الضفة الجنوبية المتوسطية.

يتضح إذن أن المغرب القديم شكل مسرح الأحداث مما جعله محط الاهتمامات التاريخية. ويمكن التمييز ضمن هذه الاهتمامات بين منظورين : الأول عمودي والثاني أفقي. والمنظور العمودي ينقسم بدوره إلى الزاوية العمودية الخارجية التي تعمل على إبراز مظاهر السيطرة الرومانية على العالم المتوسطي ومن تم تدرج مراحل إهتمام الرومان بموريطانيا في سياق إهتماماتها، وقد بين ابراهيم بوطالب

---

[19] - هذا ما نلمسه من خلال نوعية الأبحاث المغاربية التي تتناول تاريخ إفريقيا الشمالية. أنظر نتائج الدراسات البيبلوغرافية لشمال إفريقيا التي سبق ذكر البعض منها وأنظر كذلك :

M. SOUNNI, La Tingitane romaine : identités et transformations, Thèse de Doctorat, Beasnçon, 1987, p. 23-139, (Trav. dact.)

[20] - تبنى هذا الاتجاه أغلبية الباحثين المغاربة الدين تناولوا تاريخ المغرب في العهد القديم مثل : المصطفي مولاي ارشيد، م. س، وعلي واحدي، مكانة وليلي الإقتصادية، رسالة السلك الثالث، فاس 1985-1986 (عمل مطبوع) وغازي حليمة:

H. GHAZI, Les chefs berbères dans l'histoire des mondes antiques, thèse de doctorat d'Etat, Bordeaux, 1992, (tra. Dact).

[21] - نعيمة الخطيب بوجبار، المغرب والفينيقيون. مذكرات من التراث المغربي، منشورات الأطلس، الرباط، 1985، ص. 128-134.

بعض الجوانب الاستعمارية لهذه النظرة والسياق التاريخي الذي ظهرت فيه بقوله : " كانت العناية بالتاريخ القديم على ما فيها من جدارة وموضوعية، ترمي إلى غايات متكاملة، أولها النيل من الضمير الإسلامي بالمغرب عن طريق الإيحاء باحتمال زواله لفائدة أوربا، مثلما زالت لفائدته في القرن السابع من الميلاد معالم الحضارة الفينيقية والقرطاجية والمسيحية، وثانيها التذكير بما كان للمسيحية من الإنتشار بالمنطقة للايهام باحتمال تجديد التبشير بها، وثالثها إعتماد الإرث الروماني لإضافاء صبغة الشرعية والأصالة على أعمال الغضب والاستغلال الاستعمارية" [22]. وفي المقابل فإن الزاوية العمودية الداخلية تركز على خاصية علاقة تاريخ موريطانيا بالضفة الشمالية من البحر المتوسط. أما النظرة الأفقية فتبقى في مجملها مغاربية حيث تتناول هذا الموضوع من موقف نظرة حضارة متوسطية فاعلة في التاريخ الشمولي للعالم المتوسطي، وتجعل من وجود الرومان في المنطقة حدثا خارجيا تمت المعاملة معه وفق ما تقتضيه الضرورة، حيث ظهرت على السطح اهتمامات متعددة تتناول أساليب الاستغلال ثم أشكال المقاومة. يمكننا العمل بهذه المنهجية العملية من تحديد زاوية تناول الموضوع ويساعدنا في تحديد المنظور الفكري والإيديولوجي الذي يتم فيه تناول تاريخ المغرب القديم. هذا التباين في المنظور الفكري أسفر عن اختلاف في مستويات تناول المواضيع.

3 - تطبيق هذه المنهجية على كتاب حرب يوغرطة لسالستيوس

يقدم لنا سالوستيوس حول هذا الموضوع مادة تاريخية وعناصر قانونية تمكننا من تتبع بداية التدخل الروماني بموريطانيا، وذلك حينما اهتم ببعض أحوال المملكة المورية جاعلا منها أحد الأهداف التي دفعته إلى الاهتمام بحرب يوغورطة[23]. وما يثير الانتباه في هذه التبريرات هو أن سالوستيوس يسعى إلى رد الاعتبار للتاريخ الروماني مبررا شرعية الحروب التي خاضتها روما مع القرطاجيين، وضد قادتها الذين "هاجموا روما في عقر دارها : إيطاليا" ، ثم شرعية دخولها في الحروب مع

22- إبراهيم بوطالب م. س.، البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي... ص. 129.

23 - عمل سالوستيوس في مقدمة كتابه عن يوغورطة على إبراز الدوافع التي جعلته يهتم بموريطانيا الغربية. وهو في ذلك، يسير في نفس اتجاه "المدرسة التاريخية البوليبية" التي تبدأ بتقديم الأسباب الداعية إلى الاهتمام بالمواضيع التي يتم التطرق إليها. وحول دوافع اهتمامه بموريطانيا الغربية يقول "عند قيام الحرب ضد يوغرطة، كان للشعب الروماني حكام على أكثر المدن البونيقية والمناطق التي احتلتها قرطاجة في الأخير. وكان قسم كبير من الجيتوليين ومن أرض نوميديا إلى نهر ملوكا يخضعون ليوغرطة، بينما كان الموريون تحت سلطة الملك بكوس الذي إذا استثنينا اسمه فإنه كان يجهل كل شيء عن الشعب الروماني، وكذلك نحن لم تكن لنا معه أية علاقة لا سلمية ولا عدائية، هذه التقاليد عن إفريقيا وعن سكانها تكفي لما يتطلبه موضوعي" سالوستيوس، حرب يوغرطة، 19. 7، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 108.

باقي القادة في شمال إفريقيا مثل يوغورطة وتكفاريناس. وهي "الشرعية" التي عمل سالوستيوس على توضيح معالمها في إطار اهتمام الرومان بمملكة بكوس في موريطانيا[24]. وهو بذلك يطبق نفس المنهج التاريخي الذي سبق أن تناول به المؤرخ "بولبيوس" تفسير "ظاهرة بسط نفوذ الرومان على العالم المتوسطي"[25]. حيث شكل اختلاف هذه الظواهر العمود الفقري في الكتابات التاريخية الرومانية التي عملت على تمرير الخطاب الرسمي والقانوني للتدخلات العسكرية في مختلف أقاليم البحر الأبيض المتوسط.

إن صورة العلاقة بين المملكة المورية والرومان عند سالوستيوس ذات وجهين: الوجه الأول يخيم عليه واقع السيطرة الرومانية على القسم الشرقي من إفريقيا الشمالية وهاجس الخوف من اكتساحها للقسم الغربي ليشمل مملكة بكوس. ويتضح ذلك من مساعي الملك الموري الذي لعب دور الوساطة بين الرومان ويوغورطة. كانت هذه المساعي نابعة من إدراكه أن تفاقم الوضع السياسي والعسكري يؤدي إلى تغيير الخريطة السياسية في المنطقة. غير أن هذه المحاولات وجدت رفضا من الرومان بسبب أن هذا الصراع كان وسيلة لبسط نفوذهم على المناطق المجاورة الغربية بدءا بإدراجها إلى حلبة الصراع وإرغامها على اتخاذ موقف بين الأطراف المتصارعة[26] يبرر سالوستيوس هذه السياسة التوسعية الرومانية بكون الخطر يكمن في استمرارية

---

[24] - تجدر الإشارة إلى أن المؤرخ سالوستيوس ينتمي إلى المدرسة التاريخية البوليبيوسية (نسبة إلى المؤرخ الروماني يوليبيوس) والتي كانت تعمل على ترسيخ التاريخ الرسمي للرومان عن طريق إعطاء الشرعية للأحداث التاريخية. حول المنهج التاريخي عند سالوستيوس أنظر:

J. SOUBIRAN, Une analyse du style historique, R.E.L., 1970, p. 79 - 87 ; J. C., RICHARD, Salluste Témoin et juge de son temps, R.E.L., 1971, p. 48 - 58 ; E. TIFFOU, Pour une Interprétation de la guerre contre Jururtha, dans Essai sur la pensée morale de Salluste à la lumière de ses prologues, Paris, 1971, p.415 - 487.

[25] - حول المدرسة التاريخية البولبيبوسية أنظر :

P. PEDECH, La méthode historique de Polybe, Les Belles Lettres, Paris, 1964.

[26] - يشير سالوستيوس إلى أن بكوس حاول القيام بوساطة بين الرومان ويوغورطة، وأن هذه الوساطة فشلت لتعنت بعض المتعطشين منهم إلى الحروب وجمع المال. غير أن قراءة هذا النص تجعلنا نقتنع أن الرومان لم يقبلوا بهذه الوساطة فهو يقول: "... وفوق ذلك، فقد قدم (يوغرطة) الهدايا العظيمة والوعود التي هي أعظم منها، واجتذب إليه خواص مستشاري الملك بكوس، وبمعونتهم أخذ يداخل الملك نفسه، ويحضه على إعلان الحرب على الرومانيين، فنجح فيما أراد، خصوصا وأن بكوس عند بداية الحرب ضد يوغرطة كان قد بعث إلى روما وفدا يطلب عقد حلف، ولكن برغم ما كان يلوح على المذاكرات من فوائد لنا في هذه الحرب، فإنها قد أخفقت بسبب دسائس بعض الرجال الذين أعمتهم الأطماع واعتادوا أن يستفيدوا الأموال من كل شيء، مما هو حسن ومما هو قبيح" سالوستيوس، حرب يوغرطة، 80. 3 -6، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 163.

وجود القوى القرطاجية إلى جانب قوى الممالك "البربرية" المساندة لها في شمال إفريقيا والذين يهددون أمن وسلامة الدولة والشعب الروماني[27]. فهم لم ينسوا أبدا نتائج الحروب القرطاجية وهجوم القائد حنبعل على الجهة الجنوبية الغربية لأوروبا، وهو الحدث الذي ترك آثارا بالغة في إيطاليا[28].

ومما يوضح أيضا هيمنة هاجس الخوف من السيطرة الرومانية على موريطانيا، نوعية تصريحات الملك بكوس التي استغلها سالوستيوس في معرض حديثه عن تبريرات موقف هذا الملك من الصراع الروماني النوميدي. بيد أن تتبع طبيعة العلاقة التي أصبحت تجمع روما بالملك بكوس في هذه الفترة تجعلنا نبدي بعض التحفظ من الرأي الذي يجعل من بكوس جاهلا بأحوال الرومان، وإن كان سالوستيوس نفسه يصرح بذلك[29]. فبكوس كان يحيط به حاشية من المستشارين الذين كانوا بمثابة المجلس الذي يشترك في تسيير شؤون الحكم[30]. ويذكر سالوستيوس أنه كان من بين أعضاء هذا المجلس من ينتسبون إلى القوى القرطاجية والنوميدية[31]. وكان أفراد هذا المجلس على دراية بتطور الأحداث السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط بدليل رفض البعض منهم التعاون مع الرومان في حربهم ضد

---

27 - يعلل سالوستيوس التحام القوى السياسية والعسكرية الرومانية ضد القرطاجيين بكونها الخطر الذي كان يؤرق راحة المواطنين ويهدد سلامة الرومان ومن تم الدعوة إلى القضاء على القرطاجيين وكل حلفائهم ومناصريهم حتى يتم القضاء على دابرهم وفي هذا الموضوع يقول : "فما دام القرطاجنيون صامدين، كنا نجد الآلام التي نتحملها طبيعية إذ كان العدو حولنا، وكنتم أنتم أصدقاؤنا، بعيدين عنا. فكل أملنا كان في سلاحنا، ولما أبعدت تلك النقمة عن إفريقيا، عشنا سعداء مطمئنين، ولا عدو لنا إلا من قد تدلوننا عليه." سالوستيوس، حرب يوغرطة، 14. 9، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 101.

28 - يقول سالستيوس في هذا الموضوع : "أثناء الحرب البونيقية الثانية، حينما كان حنبعل القائد القرطاجي، يسدد لروما من الضربات أشد ما تحملته منذ قيام السيادة الرومانية، كان مسنيسا ملك النوميديين قد دخل في صداقتنا على يد سيبيون الذي عرف من بعد بلقب الإفريقي لشجاعته. فعلا صيته لمواقفه الحربية العديدة." سالوستيوس، حرب يوغرطة، 5. 4، ترجمة النص، محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 92.

29 - سالوستيوس، حرب يوغرطة، 19, 7، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 108.

30 - من المقربين من الملك بكوس والذين كانوا يساهمون في تسيير شؤون الحكم نجد مسوكرادا Massugrad الذي عرف نهاية مأساوية على يد الملك بكوس. حول هذه الشخصية أنظر، مجمد مجدوب، م. س. مملكة الموريين وعلاقتها مع روما .... ص. 44-45. ويقول سالوستيوس عن هذا المجلس الاستشاري : "كان يعيش بجانب بكوس ويداخله أشد المداخلة نوميدي اسمه أسبار، وكان يوغرطة لما علم بقدوم سولا قد بعثه على جناح السرعة ليمثله وليستطلع نوايا حليفه في آن واحد، كما كان هناك أحد أبناء مسوكراد، واسمه دابار من عائلة مسينيسا" سالوستيوس، حرب يوغرطة، 105. 7، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص 193.

31 - يفترض محمد مجدوب أن أفراد هذا المجلس الاستشاري " هم زعماء الأرستقراطية القبلية الذين يستثمرون المجالات الزراعية والرعوية، وهم أكثر تشددا في التصدي للتوسع والاستيطان الروماني". مجمد مجدوب، م. س. مملكة الموريين وعلاقتها مع روما .... ص 97.

يوغورطة، الأمر الذي لم يكن ليغيب عن الملك بكوس [32]. إلى جانب ذلك فهذا الملك قام بمساعي دبلوماسية بين الرومان ويوغورطة. فإقامة هذه العلاقة تبين، هي الأخرى، أن بكوس لم يكن بمعزل عن تطور الوضع في شمال إفريقيا وإنما هي فكرة أراد سالوستيوس أن يمرر بها خطابه التاريخي المتميز في فن ترسيخ الأفكار الرسمية للتاريخ الروماني.

يبقى إذن أن نتساءل عن الهدف من وراء هذه الصورة "البريئة" التي يرسمها سالوستيوس للملك بكوس. نعتقد أنه يعود إلى تبرير موقف بكوس "الإيجابي" من وقوفه إلى جانب القائد الروماني ماريوس. وهو موقف نابع من تصرف "نبيل" وغير خاضع لأي اعتبارات منفعية -كما يريد أن يفهمنا بذلك سالوست- [33]. وقد عمل هذا الأخير على تدعيم هذه الفكرة بتوظيف خطب رسمية نسبها إلى بكوس، وهي كلها تشيد بعظمة هذا الملك وازدهار عصره.

أما الوجه الثاني من هذه الصورة فيكمن في إيجاد "الشرعية" لبداية مرحلة الاهتمام المباشر للرومان بموريطانيا. وتستند هذه "الشرعية" - حسب سالوستيوس - إلى المبادرة التي قام بها "أكبر وأشرف ملوك موريطانيا" قصد الدخول مع السلطات

[32] - ما يؤكد نفوذ هذا المجلس أن القائد الروماني سولا، وهو في مركز القوة للتفاوض مع بكوس قبل أن لا يناقش الأمور الداخلية لاتفاقية التبعية إلا في سرية تامة مع الملك بدون شاهد أو مع مجموعة من ذوي النفوذ وهم المكونين للمجلس. حول ظروف هذه الاتفاقية يقول سالوستيوس: "فأجاب سولا بأن حديثه بحضور أسبار سيكون مقتضبا، أما عن الباقي، فسيكون له مع المالك حديث سري لا يحضره أي شاهد أو يرجى بحضور عدد ضئيل جدا" سالوستيوس، حرب يوغرطة، 109. 1، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 194. فسولا يوجه الخطاب هنا إلى الملك والمجلس الاستشاري في آن واحد محاولا عزلهما عن بعضهما البعض. وفي نفس الوقت يدفع الملك بكوس إلى قبول المفاوضات بشروطه هو. وهذا الأخير لوح بإمكانية استغلال ورقة بعض أعضاء المجلس الاستشاري لإبرام اتفاقية التبعية والصداقة مع الشعب الروماني.

[33] - ما يثير الانتباه في حديث سالوستيوس عن الملك بكوس هو استعماله لكل الألقاب الملكية، ثم نعته بالنبيل وصاحب الجاه والقوة وغير ذلك من الخصال. مما جعل بعض الباحثين يرون أن عهد بكوس كان مزدهرا بشهادة سالوست. غير أننا نعتقد أنه يجب وضع كل هذه النعوت في إطارها الظرفي، وفي سياق الخطاب الرسمي لسالوست. فهي وسيلة لتبرير شرعية الاهتمام الروماني بموريطانيا وليست غايتها إظهار حقيقة أحوال موريطانيا.

الرومانية والشعب الروماني في علاقة صداقة ودفاع مشترك[34]. وبذلك، فسالوستيوس يريد أن يمرر الخطاب التالي : إن الرومان وجهوا اهتمامهم إلى الأراضي المجاورة لنوميديا لرد الاعتبار لأنفسهم، وأنهم لم يعملوا إلا على تحصين محيطهم الأمني بتتبعهم للانتفاضات النوميدية والمورية في الجزء الغربي من شمال إفريقيا، ونظرا للمصلحة المشتركة بين الرومان ومملكة بكوس، رغب هذا الأخير في الحصول على اتفاقية مشتركة تضمن الأمن والاستقرار في المنطقة[35]. وبذلك عمل سالوستيوس على تقديم صورة متحضرة للرومان، وكأنهم لم يعملوا على تسليط ظلال خطر هيمنتهم على المملكة المورية منذ الحرب البونية الثانية، وإجبار باقي الممالك المورية الأخرى على اتخاذ موقف من حروبهم ضد القرطاجيين، وسيطرتهم على القسم الشرقي من إفريقيا الشمالية.

يتبين أن سالوستيوس يريد أن يمرر لنا الخطاب الرسمي للدولة الرومانية، فهو يتحدث، منذ البداية عن مملكة بكوس وشعب الموريين، وعن جهل هؤلاء لكل شيء عن الرومان وشعب الرومان، عدا الاسم. حيث جعل هذا التصريح بمثابة الفكرة الرئيسة لحديثه عن هذا الجزء من إفريقيا الشمالية. وهذا ما عمل على الدفاع عنه بكل الحجج التي وظفها في كتابة تاريخ يوغورطة. غير أنه يقدم لنا إشارتين تجعلنا نقتنع أن بكوس والموريين كانوا على بينة من أحوال روما وهدفها في المنطقة. تتمثل الإشارة الأولى في تناوله لمحاولة وساطة بكوس بين الرومان ويوغورطة. وتكمن الإشارة الثانية في تناوله لقوة مجلس المستشارين في تسيير شؤون الدولة المورية إلى جانب الملك بكوس .

---

[34] - يقول سالوستيوس إن القائد الروماني مركوس أرسل بعثة إلى الملك الروماني للتفاوض حول إمكانية التعاون المشترك بينهما. غير أننا حينما نقرأ نص سالوستيوس نقتنع أن الأمر يتعلق برسالة أرسلها مركوس إلى بكوس متضمنة تهديدا غير مباشر. وهذه الرسالة صاغها سالوستيوس بعباراته ليقدم لنا ملخصها التالي: " ... فبعث إلى بكوس وفدا يدعوه إلى أن لا يجاهر الشعب الروماني بالعداء بدون سبب، وأن لديه الآن فرصة حسنة ليرتبط معه بمعاهدة تحالف وصداقة أجدى عليه من الحرب، ,أيا ما كانت ثقته في قواته، فيجب أن لا يغامر بما هو متأكد في سبيل المشكوك فيه." سالوستيوس، حرب يوغرطة، 83. 1، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 165. ما نود التركيز عليه في هذه الرسالة أيضا هو إستعمال سالوستيوس لمصطلح التحالف Alliance وليس التبعية الذي سيتم استعماله بعد هذه المرحلة، ثم تركيزه أيضا على حيثيات إبرام إتفاقية الشراكة والصداقة مع الرومان:
societatis amicitiaeque coniugendae.

[35] - بعد قبول بكوس إبرام اتفاقية التبعية والصداقة مع الشعب الروماني بشروط، جاء جواب الرومان ليشدد الخناق مرة أخرى على الموريين. فالجواب كان يتضمن ما يلي : " إن مجلس الشيوخ والشعب الروماني لا ينسون الإحسان والإساءة، ولكن حيث أن بكوس ندم على ذنبه، فنحن نوافق على الصفح عنه وسينال حلف الشعب الروماني وصداقته عندما يستحقهما" سالوستيوس، حرب يوغرطة، 104. 5، ترجمة النص محمد التازي سعود، م. س. ... ص. 191.

نخرج بفكرة تجعلنا نقتنع بأن بداية الاهتمام المباشر للرومان بموريطانيا بدأت مع حرب يوغورطة. وهذا الاهتمام نابع -حسب التصريح الروماني- من رغبة الموريين في الالتحاق بصفوف الرومان. غير أن تتبع هذه الاهتمامات الرومانية من خلال تطور الأحداث السياسية التي طبعت علاقة مملكة بكوس بالرومان توضح أن هؤلاء عملوا على تفعيل هذه العلاقة لصالحهم عن طريق استغلالها للتدخل المباشر في تسيير شؤون الحكم في موريطانيا، مما حول الملك بكوس، بعد نهاية الحرب مع يوغورطة، إلى منزلة "الملك التابع". وهذا ما عبرت عنه حليمة غازي ب "بكوس الأول أو بداية عهد التبعية في موريطانيا"[36].

تُمكننا هذه القراءة من الخروج بمجموعة من الملاحظات منها أن المصادر التاريخية الرومانية تبقى مهمة في معرفة تاريخ المغرب القديم، بيد أنه علينا تحديد الزاوية والمنظور اللذين من شأنهما مساعدتنا على الفصل بين الخطاب الرسمي وما كانت عليه الأوضاع. كما أن هذه المنهجية تفيدنا في وضع الأحداث في سياقها التاريخي الجزئي والعام، إذ يتم الانتقال من الخاص إلى العام أو العكس. وهنا يدخل عنصر المنظور الذي يعمل على ضبط الزاوية التي يتم بموجبها تناول الموضوع./.

[36] ـ شكلت هذه النقطة محطة مهمة في أطروحة حليمة غازي حول:
H. GHAZI, Les chefs Berbères dans l'histoire des mondes Antiques, Thèse de Doctortat d'Etat , Université de Bordeaux III, 1992, p. 444, (Trav. Dact).